افتئات المشرق على المقتطف

ودرس في الاخلاق

اذا كتب صاحب المشرق في المواضيع العلمية الطبيعية واخطأ فيها فهو معذور لان هذه المواضيع فرق طوره وقلَّ يسلم من الخطإ فيها مَن لم يدرسها الدرس المدقق . ولكنهُ اذا عثر على خطإ يرتكبهُ في موضوع كيماوي او فسيولوجي او بيولوجي فقلما يعذر اذا اخطأ في ما بعدَ من تاريخ العلم كقولهِ في جزء يوليو من المشرق في مقالة موضوعها المقتطف والتوليد الذاتي « ان كل مساعي دارون وانصارهِ في اثبات التوليد الذاتي لم تجدهم نفعاً » فان دارون لم يسعَ هذا السعي مطلقاً ولا سعى انصارهُ في اثبات التوليد الذاتي بل سعوا في اثبات ضدهِ كما هو معلوم من تجارب تندل وباستور التي شرحناها بالاسهاب مِراراً في المقتطف منذ ٣٦ سنة . ولا يعذر بعدَ اذا حرَّف الاقوال الصريحة ونسب الينا قولاً لم ينقلهُ كقولهِ ان مجلة المقتطف متشبثة بهذا التعليم اي بالتولُّد الذاتي في عهدنا هذا بالعوامل الكيماوية . فانا من حين ادعى باستيان وانصارهُ بالتولُّد الذاتي في الوقت الحاضر ونحن نقول انهم لم يؤيدوا دعواهم بالدليل . وها بعض ما كتبناهُ في هذا الصدد . قلنا في الصفحة ٢٥٨ من مقتطف مارس سنة ١٩٠٧ ما نصهُ

« كان القدماء يقولون بتولُّد الاحياء الراقية كالديدان والضفادع من الطين مباشرة ولم يكن احد يقول انهم ملحدون او مخطئون . ثم وجد علماء الطبيعة منذ عهد غير بعيد ان تلك الاحياء انما تتولد من بيوض احياء مثلها فقالوا ان الحي لا يتولد الا من حيّ مثلهِ فاتحد علماء الاديان ذلك فريعة الى تكفير من يقول بتولد الحي من غير الحي زاعمين ان القول بهذا التولد ينفي وجود الخالق ناسين ان اسلافهم من علماء الاديان كانوا يقولون بتولد الحي من غير الحي ولا يحسبون ذلك نافياً لوجود الخالق . ومهما يكن من ذلك فان بين علماء البيولوجيا عالماً مشهوراً اسمهُ الدكتور بستيان وهو من اكبر علماء الطب سنّاً واكثرهم بحثاً في هذا الموضوع وقد ادَّعى منذ عهد طويل ان الاحياء تولدت معهُ في سوائل لا اثر لبزور الاحياء فيها فافسد تندل وباستور وغيرهما من العلماء قولهُ بالامتحان واثبتوا ان تلك الاحياء انما تولدت من بزور دخلت الانابيب التي اجرى التجارب فيها مع الهواء . وقد اوضحنا ذلك منذ نحو ثلاثين سنة كما ترى في المجلد الثالث من المقتطف

« لكن الدكتور بستيان لم ينفك عن الامتحان والتجربة حاسباً ان الحيَّ تولَّد اولاً من غير

الحي وان ما يمكن حدوثه منذ الوف من السنين يمكن ان يحدث الآن . وله مقالات وكتب في هذا الموضوع . وقد خطب في اواخر شهر يناير الماضي في الجمعية الطبية الملكية ببلاد الانكليز خطبة في هذا الموضوع اثبت فيها ان ولادة الحي من غير الحي فاستحضر سائلاً فيه مقادير قليلة من سلكات الصودا وقصفات الامونيا وحامض فصفور يلك خفف بالماء المقطر . وسائلاً آخر فيه مذوب سلكات الصودا ومذوب برتيرات الحديد ووضع السائلين في انابيب نظيفة من الزجاج وعرضها للنور المنظير حيث الحرارة ٦٠ درجة الى ٦٥ بميزان فارنهيت فتولدت فيها جراثيم حيّة من تلقاء نفسها وكانت هذه الاحياء تتولد فيها ايضاً اذا وضعت في مستفرغ مفرغ درجة حرارته ٩٥ بميزان فارنهيت

« وحذراً من دخول بزور الميكروبات الى السائل كان يضعهُ في الانابيب ويسدها سدًّا هرمسيًّا ثم يضعها في حمّام من كوريد الكلسيوم درجة حرارته ٢٦٦ بميزان فارنهيت (١٣٠ سنتغراد) من عشر دقائق الى عشرين دقيقة فيرسب فيها راسب من السلكا وحدها او من السلكا والحديد . ثم يعرض الانابيب للنور او يضعها في المستفرغ الذي حرارتهُ ٩٥ درجة من خمسة اسابيع الى اربعة اشهر فتتولد فيها جراثيم حيّة توجد بين رواسب السلكا التي ترسب فيها . واذا كسر انبوب بعد احمائه وقبل ان يعرض للنور او يوضع في المستفرغ لم يوجد فيهِ شيء من الجراثيم الحية على الاطلاق ولكن الانابيب التي تعرض للنور او لحرارة المستفرغ مدة طويلة توجد فيها الجراثيم الحيّة بكثرة . وغنيٌّ عن البيان ان الميكروبات كلها تموت في حرارة الماء الغالي اي عند الدرجة ١٠٠ بميزان سنتغراد وبزور الميكروبات تموت عند الدرجة ١١٥ بميزان سنتغراد اذا عرضت لها دقيقة او دقيقتين فقط اما هذا السائل فعرض لحرارة ١٣٠ درجة سنتغراد من عشر دقائق الى عشرين دقيقة فلو كان فيهِ شيء من الميكروبات او من بزورها لامانتهُ الحرارة حتماً . وعند الدكتور بستيان ان هذه الاحياء تتولد في السائل كما تتولد البثورات في السوائل الحية

« اما نحن فنظن ان بزور الميكروبات التي قاعدة بنائها الكربون تموت بالحرارة اذا بلغت الدرجة ١١٥ من واما بزور الميكروبات التي قاعدتها السلكا فلا تموت بهذه الحرارة ولا بما هو فوقها ولا تتولد الميكروبات منها الاَّ اذا عرضت للنور او للحرارة مدة طويلة وان المواد التي استعملها الدكتور بستيان كان فيها بزور ميكروبات قاعدتها السلكا فلم تمت بالحرارة التي استعملها ثم نمت بتعريضها للنور او للحرارة مدة طويلة . فان اصاب ظننا فتكون تجارب الدكتور بستيان الحديثة مثل تجاربهِ القديمة غير مثبتة لتولد الحي من غير الحي ولو كان

تولُّدهُ منهُ ليس مستحيلاً لذاتهِ»

وبعد بضعة اشهر سألنا سائل من بيروت السؤال التالي قال قرأت في مجلة المشرق صفحة ٥٥٠ ما يستفاد منهُ ان المقتطف شطَّ لما رأى ان بعض العلماء كالدكتور بورك توصل الى تركيب جراثيم حيَّة من عناصر معدنية فهل ما رواهُ صحيح

فاجبناهُ اننا نروي الاخبار العلميَّة كما تذكرها اشدُّ الجرائد العلميَّة تدقيقاً . وتولُّد الجراثيم الحيَّة من العناصر غير الحيَّة لم نرَ خبرهُ كامر ثبت بالامتحان ولم يبقَ فيهِ ريب . وقد نشرنا فصولاً كثيرة في هذا الموضوع كما ترون في المجلد الثلاثين والحادي والثلاثين من المقتطف ومقالة المجلد الحادي والثلاثين مبنيَّة على تجارب الدكتور بورك بنوع خاص وهي في الصفحة ٦٥٧ وما بعدها فطالعوها تجدوا فيها فوائد كثيرة وتجدوا اننا نقلنا ما ذكرهُ جلة العلماء الثقات بالاحتراس التام لا لان الاعتقاد بتولد الجسم الذي نسميهِ حيًّا من الجسم الذي نسميهِ جماداً مستحيل لذاتهِ بل لانهُ لم يثبت حتى الآن تولُّد الحي من الجماد بالامتحان . وآخر ما كتبناهُ في هذا الموضوع خبر مسهب في صدر باب الاخبار في الجزء الثالث من اجزاء هذه السنة حيث انتقدنا تجارب العلامة الدكتور بستيان بناهُ على ان بزور الميكروبات التي قاعدة بنائها الكربون تموت بالحرارة اذا بلغت الدرجة ١١٥ س واما بزور الميكروبات التي قاعدتها السلكا فلا تموت بهذه الحرارة ولا بما هو فوقها ولا تتولَّد الميكروبات منها الاَّ اذا عرضت للنور او للحرارة مدة طويلة . الى ان قلنا «ان تجاربهُ الحديثة مثل تجاربهِ القديمة غير مثبتة لتولُّد الحي من غير الحي ولو كان تولُّدهُ منهُ غير مستحيل لذاتهِ » . واذا نظر الى المسألة من وجه ديني فلا يتعذَّر على الله ان يجعل الحي يتولَّد من الجماد كما لا يتعذَّر عليهِ ان يجعل الحي يتولَّد من الحي»

وكتبنا في مقتطف اغسطس سنة ١٩١٢ ما نصهُ

« يتذكر قراء المقتطف الجدال الذي قام بين العلماء في اصل الحياة والتولد الذاتي اي تولد الحي من غير الحي وكيف ثبت بالامتحان ان الاحياء التي ادَّعى بعض العلماء انها تولَّدت تولُّداً من مواد غير حية انما تولدت من بزور احياء مثلها وقليلهِ حكموا ان الحي لا يتولد الاَّ من بيضة او من حي مثلهِ . لكن بقي من اولئك العلماء الذين خاضوا حومة الجدال عالم انكليزي اسمهُ باستيان يعتقد بالتولُّد الذاتي وهو استاذ الطب النفري والعملي في مدرسة لندن الجامعة ولهُ مؤلفات كثيرة بعضها طبي في الامراض العقلية والجهاز العصبي وبعضها في المواضيع البيولوجية وقد ذهب فيها الى تولد الاحياء تولداً ذاتيًّا من مواد غير حية مثل كتاب اصل الاحياء الدنيا ومبادئ الحياة واصل الحياة وتولدها واصل المادة الحية وحقيقتها

ونشوء الحياة بناها كلها على تجارب الكثيرة التي استدلّ منها على ان بعض الاحياء يتولّد لذاته من مواد ليس فيها بزور اجسام حية ولا جراثيمها . وقد نشر الآن رسالة موضوعها اصل الحياة وصف فيها التجارب التي جرّبها حديثاً فظهر لهُ منها ان بعض الاحياء تولد في سوائل طلية بعد اغلائها ووضعها في انابيب من الزجاج وسدّها سدّاً هرمسيّاً اي لحمها بالنار

« واذا نظرنا الى الاحياء نظراً فلسفيّاً استحال علينا ان نفي تولّد الحي من غير الحي ولو لم نتمكن من رؤية الاحياء تتولّد من مواد غير حية لان هذا التولد ليس ممتنعاً لذاته ولكن ان كنا قد عجزنا عن توليد الحي من غير الحي ولم نرَ حيّاً يتولّد من غير حي وكل ما ظاهرهُ ان حيّاً تولد من غير حي ثبت بالامتحان انهُ تولد من بزور حي مثله ترجح لنا ان الحي لا يتولد من غير الحي في احوالنا الحاضرة ويبقى هذا الحكم مرعيّاً الى ان تكرر تجارب باستيان مراراً كثيرة وتبقى نتيجتها واحدة او تعاد على اسلوب كبير حتى يتكون بها مقدار كبير من الاحياء التي ادّعى تولدها ولا يبقى محل للظن ان جراثيم تلك الاحياء والمواد التي تغتذي بها كانت موجودة في السوائل التي استعملها ولو بمقدار طفيف جدّاً »

فكيف يكون المقتطف متشيّعاً بالتولد الذاتي في عهدنا هذا كما يدعي المشرق مع قولنا الصريح انهُ « ان كنا قد عجزنا عن توليد الحي من غير الحي ولم نرَ حيّاً يتولّد من غير حي وكل ما ظاهرهُ ان حيّاً تولد من غير حي ثبت بالامتحان انهُ تولّد من بزور حي مثله ترجح لنا ان الحي لا يتولد من غير الحي في احوالنا الحاضرة » الخ . ولم نكتفِ بهذا القول بل خالفنا صديقنا الدكتور باستيان واعترضنا عليهِ وقلنا ان تجاربهُ لا تكفي للاقناع وعللنا الاحياء التي ظهرت معهُ بانها من بزور قاعدتها السلكا وهو تعليل لم نسبق اليهِ في ما نعلم . وبعد ذلك نشر الدكتور باستيان وصف تجاربهِ حديثة اطلع العلماء عليها فترتب علينا من باب الانصاف وخدمة العلم ان نذكر تجاربهُ هذه فاشرنا اليها اولاً في مقتطف فبراير الماضي حيث قلنا

« يراد بالتولّد الذاتي ان ينشأ من المواد الغير الحية جسمٌ حيٌّ حيواناً كان او نباتاً . ولا يخفى ان الاحياء تولدت اولاً من اجسام غير حيّة وكان المظنون ان الاحياء الدنيا وبعض الاحياء العليا لا تزال تتولد كذلك . ثم ظهر بالاستقراء ان الحي لا يتولّد الآن الاّ من حيّ مثله فالنبات يتولد من انبات والحيوان من الحيوان كل نوع من نوعهِ . ولكن بعض العلماء وفي مقدمتهم الدكتور باستيان المشهور يقولون ان توليد الحي من غير الحي ممكن الآن وادّعى الدكتور باستيان ان ذلك وقع لهُ فعلاً اي انهُ جمع مواد ليس فيها اثر للاحياء ولا لبزورها ودبّر كل التدابير الممكنة لمنع وصول الاحياء اليها فتولّدت فيها اجسام حيّة متحركة مثل

الاجسام الحية تماماً . وقد كتب الدكتور فيرات الآن الى جريدة ناتشر يقول انهُ اعاد التجارب التي جربها الدكتور باستيان فوجد انها مانعة لدخول الاحياء وبزورها من الخارج وان ما تولد من تجارب باستيان هو اجسام آتية مماثلة للاجسام الحية تماماً وبعضها متحرك ايضاً . ونقل ما قالهُ الدكتور باستيان في ذلك في جريدة ناتشر »

ثم ترجمنا مقالة ناتشر في مقتطف مارس . ثم انهُ جاءت في آخرها هذه العبارة وهي « فاذا كانت المادة الحية نشأت من المادة غير الحية في الماضي بفعل العوامل الطبيعية فهذا دليل على انها تبقى تنشأ اليوم ايضاً بفعل العوامل الطبيعية وتجاربنا تؤيد ذلك » فهذه العبارة لباستيان نفسهِ لا للمقتطف ولا يعقل ان صاحب المشرق يفهم منها نفي الخالق لانها بمثابة قولنا انبتت الارض نباتها واخرجت الاشجار اثمارها وولد ابرهيم اسحق ويعد اليسوعيون مئة الف من هنود اميركا فان هذه الاقوال التي يقولها اليسوعيون كما يقولها غيرهم لا تنفي العلة الاولى . والطبيعيون لا يبحثون الاَّ عن العلل الثانوية التي يسمونها علاً طبيعية وهذا يعلمهُ الاب شيخو كما يعلمهُ كل احد

اذا كان الامر كما تقدم اي اذا كنا قد قلنا دائماً ان التولد الذاتي الآن لم يثبت ثبوتاً ينفي كل ريب بل عدم ثبوتهِ ارجح من ثبوتهِ وان كنا نقول دائماً كما قال الاب شيخو الآن في حاشية مقالتهِ المشار اليها آنفاً وهو « ولا حاجة الى تنبيه القراء على ثبوت حقيقة وجود الخالق حتى ولو صحَّ المذهب الداروني لان التولد الذاتي اذا حدث انما يحدث بقوة الخالق علة كل المعلولات » ونزيد عليهِ ان القوى الطبيعية التي تدير الكواكب في افلاكها وتنمي النباتات من بزورها وتهدي الحيوانات في مسارحها انما هي مما اودعهُ الخالق التدبير في المادة . فهل ترى من المشرق هذا الافتئات على المقتطف

اننا كنا من المعجبين بالمقالات التاريخية التي ينشرها المشرق من وقت الى آخر لما فيها من دلائل البحث والتحقيق عدا ما فيها من الكشف عن امور تاريخية نود الوقوف على حقيقتها . وقد ادعى غير واحد ان صاحب المشرق يتلف الحقائق التاريخية ويحرفها حتى توافق اهواءهُ فلم نحفل بدعواهم اما الآن فصرنا نخاف ان تكون دعواهم صحيحة . وقد لا يفعل صاحب المشرق ذلك عن قصد سيئ بل قد لا يشعر بما يفعلهُ من التحريف والتبديل لانهُ مدفوع اليهِ بعامل نفسي هو نصرة ما يعتقدهُ فرضاً عليهِ سواءٌ كانت نصرتهُ بالحق او بالباطل . ومما يرجح لنا ذلك افتئاته المتواصل على المقتطف وبخسهُ حقهُ ونسبتهُ الى غيرهِ . واني القراء الكرام قصة توضح ذلك كتبتها في مقتطف مارس سنة ١٩١١ مقالة موضوعها واضعو علم النحو استدللنا فيها على

ان يوحنا الفراماطيقي هو غير يوحنا النحوي وان يوحنا النحوي هذا هو يوحنا المؤرخ مسقف نحو او نقيوس بلدة في مصر فغلط العرب بينهُ وبين يوحنا الفراماطيقي فاوهمهم هذا الغلط ان كلمة نحو مرادفة لكلمة فراماطيقي فسموا علم قواعد العربية نحواً . ولما اطلع بعض المستشرقين على هذا التعليل والتفسير اعجبوا به وكتب الينا صديقنا الاستاذ مرغوليوث يطلب منا ان نحقق من عارف باللغة القبطية كيف كان اسم مدينة نقيوس يكتب بالقبطية فسألنا اصدقاءنا الاقباط عن رجل عارف باللغة القبطية وأدأبها فهدونا الى حضرة جرجس افندي فيلوثاوس من سمكان فكتبنا اليهِ نسألهُ عما جاء في الكتب القبطية عن كلمة نقيوس ونحو الخ فاجابنا برسالة نشرناها في باب المراسلة في مقتطف يونيو سنة ١٩١١ بدأها بقولهِ « قرأت ما جاء في المقتطف الاغر وما جاء في كتاب حضرتكم عن نخاوس ونحو ونقيوس وقد طلبتم ان اخبركم عما اذا كنت رأيت اسم نيقيوس مكتوباً بالطاء » الخ

وواضح من رسالتهِ هذه ان القول بان يوحنا الفراماطيقي هو غير يوحنا النحوي ليس لهُ بل هو لنا وانهُ انما اجابنا عن سؤال سألناهُ اياهُ بعد ما نشرنا مقالتنا بمدة طويلة والغرض منهُ كيف كان اسم مدينة نقيوس يكتب بالقبطية وواضح ايضاً من مقالتنا اننا نحن الذين قلنا وحققنا ان يوحنا الفراماطيقي هو غير يوحنا النحوي سواء اصبنا في قولنا وتحقيقنا او اخطأنا ومع ذلك اشار المشرق بعد ذلك الى هذا التحقيق في بعض اعدادهِ ونسبهُ الى جرجس افندي فيلوثاوس لا الينا ولو اعتقد انهُ خطأ لنسبهُ الينا وان كان القائل بهِ رجلاً من الصين المحتمل ان الغرض بقي ويصل الى هذا الحد

والمشرق يعامل كل علماء الانكليز وكل ما هو غير كاثوليكي هذه المعاملة . اذا حسب ان الامر سيئة نسبهُ اليهم مسراحة كتولهِ في مقالتهِ المشار اليها آنفاً باستيلاء الانكليز على واذا حسب انهُ حسنة اغفل اسمهم ونسبهُ الى غيرهم كاغفالهِ اسم تندل في تجارب التولد الذاتي مع انهُ جرّب اكثر من كل العلماء الذين جربوا لكي ينفي التولد الذاتي وصعد الى اعالي جبال الالب لهذه الغاية . المحتمل ايضاً ان يكون كل ما كتبهُ المشرق على « النصرانية وآدابها في عرب الجاهلية » من هذا القبيل مملوءاً بالتحريف والتبديل . المحتمل ان كل ما كتبهُ في المواضيع الشرقية التي لها علاقة بالديانة المسيحية محرّفاً ومبدّلاً حتى يوافق غرضهُ

نسأل الله ان يقينا من الاستسلام للاهواء وان يعصم اقلامنا من الزلل ويري صاحب المشرق ان ضرر الشيء ممن ينصرهُ لا يطرقهِ اكثر من ضرره ممن يطعن فيهِ بطرقهِ كما قال الامام الغزالي